كلمة أل الفقيد

ألقتها كريمته المحامية صبا صَدِّقْني

أيها الحفل الكريم

اسمحوا لي أن أبدأ بالتوجه بجزيل الشكر للسيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية أدامه الله ذخرًا للوطن والأمة، وأن أشكر السادة نواب السيد الرئيس، والسيد الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي، والسيد الأمين القطري المساعد، والسيد رئيس مجلس الشعب، والسادة الأمناء العامون لأحزاب الجبهة الوطنية التقدمية، وأعضاء القيادتين القومية والقطرية، والسادة الوزراء، والسيد رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق، والأساتذة أعضاء المجمع، والحضور الكريم على ما أبدوه جميعًا من مواساة ورعاية واهتمام، تركت في نفوسنا المفجوعة أعمق الأثر.

إنه لموقف جليل مهيب هذا الذي أقفه اليوم بينكم، لمشاركتكم تأبين من لم أكن أتخيل يومًا أنني سأفقده، وإن كان الموت حقًّا علينا وكأسًا علقمًا لا بدّ أن نتجرعه... فأنا لم أكن يومًا لأتصور الحياة خالية ممن أشبع حياتي حبًّا، وملأها بهجة وحنانًا..

وإذا كان الموت يستطيع أن يخطف منا أحبَّتنا، فأبدًا لن يستطيع حرماننا من الذكريات التي تبقيهم أحياءً في القلوب. إنني إذ ينساب أمامي شريط الذكريات، وأسترجع صورًا من الماضي، لا أرى أمامي إلا ذاك الوجه الحبيب المبتسم، وتلك الروح المرحة المتوثبة والنفس الكريمة المعطاءة، والذهن المتقد والفكر النير المتعطش دائمًا للمعرفة. لا أرى إلا تلك البصيرة النافذة التي لم تخذله يومًا، فلطالما كان قادرًا على الأخذ بجوهر الأمور دون ظاهرها، والنفاذ إلى عمق الأشياء، ورؤية أبعد وأعمق مما نرى وما ندرك. لا أرى في شريط ذكرياتي إلا ذاك العقل الراجح وتلك النفس المتسامحة وذلك

القلب الكبير.. قلب اتسع لحب الجميع، لم يستثنِ أحدًا، عندما كان راقدًا على فراش المرض، والناس تتوافد لزيارته، قال له أخي كنان في لحظة خلوة: «أترى يا أبي.. الجميع يحبك» فأجابه بصوته الحبيب: «وأنا أحبهم جميعًا».

لم تكن محبته لأولاده وأسرته أنانية الغاية، ولا نفعية المقصد، ولم يكن يعادلها في عظمتها إلا محبته لوطنه وأمته العربية. كان عروبيًّا حتى العظم، آمن بمقومات وجود أمته ورفعتها، ولم يضعف إيمانه هذا حتى في أصعب الظروف وأحلكها، وعشق لغتها العربية وفصاحتها وجذالتها فترجم إليها ما اصطفاه من أمهات الكتب في الفكر والسياسة والفلسفة.

آمن والدي بمبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي وأمضى جل حياته يناضل لإعلاء بيارق البعث وتجسيد مبادئه وتحقيق أهدافه. كان نضاله السياسي منزَّهًا عن كل منفعة، لا يحركه إلا إيمانه الراسخ بالعروبة والحرية والعدالة الاجتماعية. لم يبخل يومًا بالتضحية، ولم يتخاذل أمام الصعاب، ولم يتوانَ عن نصرة مظلوم. اعتُقل مرات عدة، فكان صبورًا على الشدائد، ثابتًا أبدًا على مواقفه، لم نسمعه يتأفف أويتذمر حتى في مرضه، ظل يكابر بشجاعته المعهودة، ليس حبًّا بالحياة وزخرفها، بل رجولة وكبرياء، ورفقًا بأحبته ومراعاة لمشاعرهم.

أعود بشريط الذكريات فأرى أبي كما تعرفونه، نَيِّر العقل، صادق الفؤاد، عفيف النفس، كريم الخلق. وكان رحمه الله، يَنْكبُّ على عمله ساعات طِوال، غارقًا بأكوام الكتب والمعاجم والأوراق والصحف والقصاصات، يقرأ، يُنْعِم النظر، يحلل، يجمع، يكتب، يترجم ويدقق... كان رحمه الله أمينًا على عمله، يبحث في أدق التفاصيل، يدقق في كل كلمة يكتبها، لم يثنه المرض يومًا عن متابعة مسيرته، ولا تقاعس قط عن أداء واجبه.

أبي الحبيب، ما أصعب أن أرثيك.. فأنت مازلت بينا وستبقى... اشتقت إليك قبل أن أفقدك.. وكم سيتعاظم شوقي مع الأيام... ترمقنا بتلك النظرة الموجهة الحانية... تأخذ بيدنا من حيث أنت.. فلا تنسانا... لأننا أبدًا لن ننساك.